تاريخُ جَزيرةِ العَرَبِ ومُعتَقَداتُهُمُ الدِّينيَّةُ في شِعرِ الأَعشَى الكبير

أ.م.د. علاء جاسم جابر
جامعة بغداد – كلية التربية للبنات

مُوجَزُ البَحث

الأَعشى الكبيرُ مَيمونُ بنُ قَيس؛ شاعرُ بَكرٍ وصَنّاجةُ العرب وجَوّالُ آفاقِ الجزيرة، رُبَّما صَحَّ وصفُهُ بمُؤَرِّخ شُعراءِ الجاهليّة .

اجتمعَ في شعره تاريخُ العرب وأحداثُه ؛ ذاكراً القبائلَ البائدة وبعضَ الأنبياء ، مُسجِّلاً إيمانَ العرب باللهِ رَبِّ العالمين، مارّاً بأَديانهم ومُعتقداتِهم العُرفيَّة السّائدة عندهم .

فضلاً عن مُعايَشةِ مَسيرة قَبيلتِهِ خاصَّةً والمُجتمعِ عامّةً ، مُنفَعلاً بعلائقهم المُتَشابكة داخلياً وخارجيًّا ، مُضمِّناً أغراضَهُ المَواعظَ والعِبَر، ساعياً إلى الإصلاح.

تمهيد :

في أطراف هَضَبة نَجْد الجَنوبيّة الشَّرقية؛ واديانِ كبيران يَمتدّان من الشَّمال إلى الجَنوب؛ يُسمَّى أَحدُهما وادي (العِرض) ، والآخَرُ (قُرّان) ؛ تجري فيهما الغُدران وتَفيضُ العُيون؛ فتنتشرُ السّائمةُ في المَراعي المُنبسطة ويَكثُر النَّخيل ، ومن هذين الواديَين يتكوَّنُ إقليمُ اليَمامة على مسيرة أربعة أيام شرقيَّ مَكَّة .

وكان هذا الإقليمُ مشهوراً بعُذوبة مِياهِه وخِصْب مَراعيه؛ يَمتازُ عَمّا حوله بحياةٍ أقربُ إلى الاستقرار، فقد نشأتْ فيه بعضُ القُرى الصَّغيرة على بقايا حُصون قبيلتي (طَسْم) و(جَديس) البائدتين.

في إقليم اليمامة بوادي العِرض في قرية (مَنفوحة) ؛ نشأ شاعرُنا [1] ، وكان أبو بَصير الأعشى الكبير مَيمونُ بنُ قَيس بن جَنْدَل بن عَوف بن سَعْد بن ضُبَيعة بن قيس بن ثَعلَبة البَكري؛ ذا شاعريةٍ فذَّة ، مُقدَّماً في الشعراء، كثيرَ التَّجوال [2] ، طافَ بقاعَ الجزيرة وزارَ المُلوكَ والأُمَراء ومَدَحَهم ، وهَجَا آخرين .

سُمِّيَ (صَنّاجةَ العرب) ؛ لِتَغَنِّيه بشِعره ، وقد لَقِيَ الإكرامَ والتَّرحيبَ أينما حَلَّ وأقام؛ عند آل جَفنةَ مُلوكِ الشّام ، والمَناذِرة ملوك العراق، وقيس بن مَعدِيكرِب وسَلامة

ذي فائش في اليمن، والسَّيِّد والعاقب رأسَي نَصارى نَجران ، وهَوذَة بن علي الحَنَفي سيِّد اليَمامة ، فضلاً عن اهتمامه بشؤون قبيلته بكر وعشائرها ونَسَبِها في وائل وربيعة [3] .

وقد أتاحتْ له أسفارهُ الكثيرة وتنقله في هذه البيئات ، ثقافةً تاريخية قَلَّ أن يُجاريَه فيها شاعرٌ جاهليّ ، كالذي نَراهُ في ثنايا شعره من أخبار عادٍ وثَمودَ ، وأخبارِ مُلوك الرُّوم والفُرس واليَمن. وبَدَتْ آثارُ الأديان السَّموية– ولاسيَّما الحَنيفيّة الإبراهيمية – واضحةً في كثيرٍ من صُوَره [4] ؛ إذ لم ينفصل تاريخُ العرب عن دينهم الحنيف .

تهيّأَ للإسلام وسارَ إلى المدينة المنوَّرة فانتدبتْ قُريشُ مَن يَترصَّدُهُ ؛ لِيَصدَّه عن مُراده ؛ كان على رأسهم أبو سفيان الذي أثناهُ عن مَقصدِهِ بجائزة،لكنَّه ما إنْ دَخَلَ مَنفوحةَ[5]، حتى رمى به بَعيرُه فقتله كافراً[6]، سنةَ سَبعٍ للهجرة؛ قبل فتح مكّة.

يتميَّز شعره الدِّيني – إذا صَحَّ التعبير– بالخطوط العامة والعلامات التاريخية التي عاصرها أو سَمِعَ بها مما مضى، والتي تكوِّنُ جُزءاً من مَعارف الجاهليين الناجعة في معتقداتهم الدِّينية، أو كانت تلك الوقائع والأحداث نابعةً من معتقدات العرب .

والأعشى مِمَّن كان على أَثارةٍ من دين سيِّدنا إبراهيمَ الخليل عليه السلام لكنَّ قلبَه تَغشّاهُ الشَّيطانُ الرَّجيم، بمعاقرة الخَمْر والافْتِتان بالنِّساء؛ فلم يَتَعمَّقْهُ الإيمانُ الخالص ولم يَتنوَّر عَقلُه تماماً بنور الحَنيفية الصّافية .

حَمدُهُ تباركَ وتقدَّس ؛ مَصدرُ الخير والإكرام :

يَفتتحُ الأعشى – شِعرَهُ هذا – بِحَمْدِ رَبِّ العباد؛ إذ كان قَيسُ بنُ مَعديكرب [7] ؛ قضى حاجاتِهِ في غُربته ، وعَوَّضَه عمّا لَقيَ من تعبٍ وعَناء : (من المتقارب)

ولكنَّ ربِّي؛ كَفَى غُرْبَتي بِحَمْدِ الإلهِ؛ فَقَدْ بَلَّغَنْ [8]

وكأنه يَشكرُ الباري عزّ وجلّ على رعايته إيّاهُ بِتَهيئة هذا السَّيِّد المفضال ليكون سبباً في انعاش كربته في تلك الأصقاع .

وفي مديحه إياسَ بن قَبيصةَ الطّائيّ، يؤكِّدُ الشاعرُ أن الله تعالى هو مصدرُ الحنان والرأفة الكاشفَين ضِيقَ المهمومين والرّافِعَين زَفَراتِ المغمومين وبِحَولِهِ سبحانه يتحقَّقُ الفوزُ والنجاة، وبأمره يكون الاطمئنانُ والبقاء: (من الرمل)

فَلَئنْ رَبُّكَ مِن رَحْمَتِهِ كَشَفَ الضَّيقَةَ عَنَّا ، وفَسَحْ
أوْ لَئنْ كُنّا كَقَومٍ هَلَكُوا ما لِحَيٍّ يا لَقَوميْ مِنْ فَلَحْ [9]
إنَّمَا نَحنُ كَشَيءٍ فاسِدٍ فإذا أَصلَحَهُ اللهُ ؛ صَلَحْ [10]

إذن؛الخيرُ وأسبابُه،والصَّلاحُ وعواملُه؛يجيء من قِبَلِ اللهِ وحدَهُ؛ برحمته التي وسعتْ كلَّ شيء.

وما دام اللهُ تبارك وتعالى؛ مصدرَ الخير كلِّه؛ فكلُّ شيءٍ مُنقادٌ لأمره، ولم يكن ذلك له جَلَّ شأنُه حَسْب ؛ بل إنَّ كلَّ شيءٍ مُنقادٌ لأمره كذلك .. يقول الأعشى لسَلامةَ ذي فائش الحِمْيَري [11] : (من المنسرح)

اسْتأْثَرَ اللهُ بالوَفاءِ وبالْـ عَدْلِ ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلاَ
والأرضُ حَمّالَةٌ لِمَا حَمَّلَ الْـ لّهُ وما إنْ تَرُدُّ ما فَعَلاَ [12]

فقد خلق اللهُ سبحانه الخَلقَ على ما أرادت حكمتُه واختار لهم ما يضمن مصالحهم، ثمَّ خصَّ ذاته المقدسة بالوفاء بما وَعَدَ وبَشَّر وبالعدل فيما قَسَمَ وقَضَى؛ فالمُحسِنُ في هذه الدُّنيا مَن وَفَّقَه الله جلَّت قُدرتُه للاسْتلهام من صفات ربِّه العَلِيّة . وكانت الأرضُ – كغيرها من المخلوقات – مُسخَّرةً بأمره تعالى، ولا تتقاطع في شيء ممّا أجراه عليها حُكمُه ؛ لهذا قيل في مذهب الشاعر: أنه كان قَدَرِيًّا، إذ كان يشتري الخمر من العِباديِّينَ نصارى الحِيرة؛ فَلَقَّنُوهُ ذلك [13] .

ويُضيف الأعشى – عندما يُحبِّبُ لقبيلته؛ حِلفَ قيس بن معديكرب الكِنديّ– أنَّ كلَّ عطاءٍ؛ أصلُهُ من الله تبارك وتقدَّس وكلَّ منالٍ جَذرُه منه سبحانه : (من المتقارب)

فإنَّ الإلهَ حَباكُمْ بِهِ إذا اقْتَسَمَ القَومُ أمراً كُبارَا
عَطاءَ الإلهِ فإنَّ الإلَـ ـهَ يَسْمَعُ في الغامِضاتِ السِّرارَا [14]

فإذا ما جعل اللهُ تعالى هذا الحلفَ من نصيبكم لمناجاتكم إيّاهُ ؛ فهو هبةٌ من الرحمن ونعمةٌ من المَنّان رأفةً بكم وحناناً من لدنه سبحانه ، وهذا أثرٌ من سياسة الشاعر الحكيمة في قبيلته ومجتمعه .

وكما صدعَ القرآنُ العظيم ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[15] . يَمدحُ شاعُرنا إياسَ بنَ قَبيصةَ الطائي[16]، مُشيراً إلى أنَّ ناقتَه تسيرُ به إلى هذا السَّيِّد الكريم: (من الطويل)

تَؤُمُّ إياساً ؛ إنَّ رَبِّي أَبَى لَهُ يَدَ الدَّهْرِ إلاَّ عِزَّةً وتَكَرُّمَا [17]
نَماهُ الإلهُ فَوقَ كُلِّ قَبيلَةٍ أباً فَأَباً يأْبَى الدَّنِيَّةَ أَيْنَمَا [18]

فهذا رجلٌ خليق أن يُزارَ بل يُرحلَ إليه ويُقصَد؛ فقد قَدَّرَ له رَبُّ العالمين العِـزَّةَ والكرامة – أبداً– وسَوَّدَهُ على القبائل كافةً، طابعاً فيه الإباء، عاصماً إيّاهُ من الخطأ فـلا يقع في شيء منه إطلاقاً .

لذا يجعلُهُ شاعرُنا؛ مثلاً كبيراً للناس الملتزمين العادلين ، إذ لم ينحرف عن مَكرُمةٍ ولا تخلَّف عن عظيمة ولا قَرُبَ من ارتكاب ذنب :

ولَمْ يَنْتكِسْ يَومـاً فَـيُظْلِمَ وَجْهُـهُ لِيركَبَ عَجْزاً أو يُضارِعَ مَأْثَمـاَ (19)

ولَوْ أنَّ عِزَّ النّاسِ في رَأْسِ صَخرَةٍ مُلَمْلَمةٍ تُعْيـي الأرَحَّ المُخَـدَّمَا (20)

لأَعْطاكَ رَبُّ النّـاسِ مِفتـاحَ بابِهَـا ولَوْ لَمْ يَكُنْ بابٌ لأَعطاكَ سُـلَّمَا (21)

فليس هذا من لا يرتكبُ ما يَشين حسب بل إنه لم يقرب ما يسيء ، لذا فقد أعـزَّهُ الله تعالى ، ولو كان هذا العِزُّ صَعبَ المنال على الناس جميعاً؛ فَسَيُيَسِّرُهُ له ربُّ العبـاد، وما هذا وغيره على الله بعزيز ، فعطاءُ رَبِّ العالمين لا يحدُّه حَدٌّ ولا يُعجِزُهُ شيء، وهو الكريمُ لمن يَستحقُّ القديرُ على ما يشاء.

وأحسَنَ الشاعرُ المُقابلةَ اللطيفةَ بين "عِزُّ الناس" و"رَبُّ الناس" .

أنبياءُ اللّه :

وبعد استلهام جلالِ القُرب الإلهي البَهيّ يُعرِّجُ على رُسُلِ الله تبارك وتعالى؛ فيذكر منهم سيِّدَنا نوحاً عليه السلام ؛ في مَعرض دعائه لإياس بن قَبيصةَ الطائي : (من البسيط)

جَزَى الإلهُ إياساً خَيـرَ نِعمَتِـهِ كَمَا جَزَى المَرْءَ نُوحاً بَعدَمَا شـابَا

في فُلْكِـهِ إذْ تَبَـدّاهَا لِيَصْـنَعَهَا وظَلَّ يَجْمَعُ أَلواحـاً وأَبْوابَـا (22)

هنا يتجلَّى يَقينُ الشاعر بِحُسْنِ جزاء هذا المُحسن ، كما أنقذ الله جلَّت قدرتهُ نَبيَّـهُ نوحاً عليه السلام من طغيان الكافرين بسفينته التي أمره تعالى أن يصنعها لنجاة المؤمنين .

فكان للأديان السَّماوية ؛ مجالٌ رحبٌ في حياة الجاهليين الشخصـية ، يتـداولها المجتمع العربي باعتزازٍ وإكبار.. يذكر الأعشى أشهرَ ما لليهود في الجزيـرة؛ حِصْـنَ الأبلق في تَيماءَ ببادية الشام ، زاعماً أنَّ النبيَّ سليمان بن داود عليهما السلام ، هو الـذي بناه قديماً – مُتبرِّكاً باسميهما الكريمين– لذا كان مَتيناً سامقاً ، وقـد جعـل فيـه بئـراً مرصوصةً بإحكام : (من الطويل)

بَناهُ سُلَيمانُ بـنُ داوُدَ حِقْبَـةً لَهُ أَزَجٌ عـالٍ وَطَـيٌّ مُوَثَّـقُ (23)

القَسَم بِشَعائر اللّه :

وعندما يَحزبُهُم أَمرٌ فائق الأهمّية أو يريدون البرهان على شيء قد تحقَّقَ وقوعُــهُ أو يقصدون إلى التأثير في مُتلقِّيهم ليُصدِّقَهم فيما يَدَّعون .. عمدوا إلــى القَسَــم الأعظــم بالذات المقدَّسة، وقد يكون القَسَمُ بلفظ الجلالة مباشرةً أو بما يُشيرُ إليه ويَختَّصُّ به، مِثــلَ ما جاء في مديح الأعشى لقيس بن معديكرب: (من الكامل)

فَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهورَ عَلامةً قَــدَراً؛ فَبَــيَّنَ نِصْــفَهَا وهِلالَهَــا

كُنتَ المُقدَّمَ غَيرَ لابِــسِ جُنَّــةٍ بِالسَّيفِ تَضرِبُ مُعلِماً أَبطالَها (24)

فهو يُقسِمُ بحياة الله الحَيِّ الباقي خالق القمر ومُقدِّره مَنازلَ لِــنعلمَ منــه حســابَ الشُّهور ومَواقِيت أيامها.. لِيُثبِتَ حقيقةَ شجاعة الممدوح التي لا يُضاهيها إقدامُ الفرســان الأبطال ؛ ذلك بما عَلِمَ من أن المَرءَ لا يَسبقُ أجَلَه.. وبهذا ليس لِمُســتمعٍ إلاّ أن يُصــدِّق الخبر .

ومن المُقدَّسات عندهم؛ بيتُ الله الحرام، وإنما ارتفع مَقامُه وشَرُفَ كيانه بإضافته إلى الجليل سبحانه ، فالكعبةُ رَمزٌ لدين الله الخالد ، ارتبطتْ بهــا أنبيــاءُ الله بتــاريخهم المبارك، وفيها تتركّزُ شعائرُ دين العرب الحنيف؛ فكان البيــتُ بذاتــه مُمــثِّلاً لوحــدتهم الشاملة..

من هذه المنطلقات والدوافع ؛ كانوا يُقسمون بالبيــت الحــرام لتوكيــد قضــاياهم الخطيرة وإثبات جلائل المهمات وعظائم الأمور؛ فَيُقسِمُ الأعشى – هنا – لِيُعلن حقيقةً لا تقبل طعناً أو شَكّاً بأنَّهم شجعانٌ أبطال لا يُزعزِعُ جُرأتَهم ولا يُضعِفُ اندفاعهم إلى ساحة الوَغى ولا يُؤخِّرُ إقدامهم على المخاطر شيءٌ أبداً ، فهم فرسان الوغى وأهل التَّضحيات : (من البسيط)

لَسْنَا بِعِيرٍ – وبَيتِ اللهِ – مائرةٍ إلاَّ عَلَيهَا دُرُوعُ القَومِ والزَّغَــفُ (25)

بهذا الاستعداد المُتَحفِّز والهِمَّة الواثقة والعزيمة القوية والإيمان الراسخ؛ يكونوا هُمُ الأجدر بصنع الانتصارات الحاسمة ..

وكان الأعشى قد صَوَّرَ ذلك المَشهدَ المُشرِّف؛ حِكايةً عن واقع حال أُسرته؛ تنفيذاً لوصاة أبيهم أن يدافعوا ببسالة عن الحقِّ وألاَّ يتخاذلوا في ميدانه .

لذلك انتفض قَومُ الأعشى على بني حنيفة (26) ؛ لانتهاك حُرمة مُجاوريهم : (مــن الكامل)

كَذَبُوا –وبَيتِ اللهِ– يُفعَلُ ذَلكُـمْ حَتّى يُـوازِيَ حَزْرَمـاً كِنـدِيرُ [27]

فقد واجههم ؛ بأنهم كاذبون قطعاً بقسمه الغليظ ، راجماً انْسلالَهم مـن التِـزامهم الأخلاقي بالواجب الجماعي، مؤكِّداً عليهم استحالةَ نَقض الجِوار .

بَينَ العائلةِ والقَبيلة :

وذلك الخلقُ انْعكاسٌ لِدِينهم الحنيف؛ لذا كان أصيلاً فيهم ، يَذكُرُ الأعشى وَصـيَّةَ أبيه : (من البسيط)

إنَّ الأعزَّ أَبانَا كـانَ قـالَ لَنَـا: أُوصِيكُمُ بِـثلاثٍ ؛ إنَّنـي تَلِـف [28]
الضَّيفَ أُوصِيكُمُ بِالضَّيفِ إنَّ لَهُ حَقًّـا عَلَـيَّ ؛ فأُعْطيـهِ وأَعْتَـرِفُ
والجارَ أُوصِيكُمُ بِالجارِ ، إنَّ لَـهُ يَوماً مِنَ الدَّهْرِ يَثْنيهِ فَيَنصَـرِفُ [29]

إنَّ أباه أوصَى بما كان لهم من مَكرُمات ، أقرُّوا بحقوقها على أنفسـهم ، يُلاحَـظُ –هنا– التأكيد على الوصاة لأهميتها العائلية والاجتماعية ؛ لوجـوب سَـرَيانها والعمـل بموجبها ، فضلاً عن فرائض الجِوار، ومكانة الضَّيف وحقوق الضِّيافة ؛ لِيـنعمَ إثْرَهـا المجتمعُ بالاكتفاء والاطمئنان والاستقرار والأمان .

كان الجِوارُ عند الجاهليين أوسعَ من القرابة جمعاً ، فهو من القـيم العليـا التـي يحرصون عليها أشدَّ الحرص ويُحافظون .. كان قوم الأعشى وأبناء عمومتهم قد أجاروا قوماً ، فانتهك بنو حنيفة جِوارَ أولئك القوم بزعم عدم لزوم جِوار قيس وذُهل عليهم : (من الكامل)

زَعَمتْ حَنِيفَةُ لا تُجِيـرُ عَلَـيهِمُ بِـدِمائِهِمْ ، وأَظُنُّهـا سَـتُجِيرُ [30]

فالجوار يقتضي الاستعداد حتى لإجراء الدِّماء ، و"ظَنَّ" – هنا – يَقينيّة ؛ إذ لـيس لأحدٍ من القبيلة أو فرعٍ منها التَّخلِّي عن التزامِ فردٍ من أبنائها أو قبيلٍ منها به .

ثم يرجع بِفِكرِه إلى الأيام الغابرة لِيتدبَّرَ في مَآلِ الماضين ، فَيُسدي النَّصيحةَ إلـى قومه في قضيَّةٍ عشائرية؛ قائلاً لهم قد بَرَّتْ يَمينُكم حين أقسمتم ، كما بَرَّتْ يمـين أبـي رياح: (من مجزوء البسيط)

كَحِلْفَـةٍ مِـنْ أبـي رِيـاحٍ يَسْـمَعُهَا لاَهُـهُ الكُبـارُ [31]

وكان هذا رجلاً من بني ضُبيعةَ قَتَلَ جاراً لبني سَعدِ بن ثَعلبـة فَسَـألوهُ أن يَدِيَـهُ فَحَلَف ألاَّ يَفعل ، ثم قُتلَ ؛ فبرَّتْ يمينُه بما يَسوؤُه .

وهكذا يكونُ جزاءُ كلِّ فِعلٍ بِحَسَبِه ، لذلك يدعو الأعشى على بعض قومه ليَجزِيَهُمُ الله تعالى بما يوازي سوءهم ؛ إذ رأى أنَّ شيبان بن شهابٍ الجَحدري لم يُوافق قبيلَ الشاعر ويُحسِنْ إليهم كما كانوا معهم ، وكذا تَيمُ بن قيس بن ثعلبة ؛ لم يَرعَوا حُرمةَ قرابةٍ أو حُقوق رَحم كفعل ضُبيعةَ إزاءَهم : (من الطويل)

جَزَى اللهُ فِيما بَيننَا شَيخَ مِسْمَعٍ جَزاءَ المُسيءِ حَيثُ أَمْسَى وأَشْرَقَا (32)

جَزَى اللهُ تَيماً مِنْ أخٍ كانَ يَتَّقي مَحارِمَ تَيمٍ، ما أَخَفَّ وأَرْهَقَا (33)

يَظهرُ بوضوح أنَّ الشاعر يَحفَظُ قدسيَّةَ الرَّحِم ، فلا يُريدُ خَدشَها بمواجهة العابثين، فَيَكلُ الأمرَ إلى المُجازي الحَق، مؤكِّداً عبارة (جزى الله) لفظاً؛ ليرسِّخَ دلالتها في أذهان المخطئين خاصةً؛ ليرعووا ، وليَعرِضَ هذا الموقفَ الموضوعي النَّزيه أمام الجميع عامةً؛ ليكونوا شهوداً لحكم الله العليم بدقائق الأمور وخفاياها ، وهو العادل الذي لا يَحيفُ قضاؤه بين خلقه ، وهو الآمرُ – قبل ذلك– بصيانة الرَّحم وحُسنِ المعاملة؛ لهذا نجد الشاعر يَعنُفُ بهم مُعرِّضاً ؛ بمفارقة ساخرة مؤلمة بين اتِّقاء رهطه للمحارم الذي خرج عنه أولئك وبين نَزَقِهم الذي جَرَّهم للدخول في هذا العُسر الذي أحدَثُوهُ في نسيج القبيلة الواحدة.

وعلى الرَّغم من غضب الأعشى من الطَّيش المُشتِّت لأواصر القُربى ، المُبدِّد لتواصل المحبَّة وتلاحم الوُدِّ؛ نَراهُ يعمل جاهداً من أجل لَمِّ الشَّمل والتَّصافي مُمثِّلاً حرصَه الشديد على تقوية صلة الرَّحِم هذه أنصعَ تمثيل .. فيعاتب بني سعد بن قيس؛ برِقَّةٍ ولُطف: (من الطويل)

هُنالِكَ لا تَجزُونَنِي عِندَ ذاكُمُ ولكنْ سَيَجزِينِي الإلهُ؛ فَيُعقِبَا (34)

يُلَمِّحُ لأبناء عمومته : أن الله تعالى يُغنيه عنهم؛ إذ كان هو كريماً؛ بفضله سبحانه، واصلاً مالَهُ للجميع ، وفيًّا في مواقف الدفاع عن أعراض ذوي قرابته بلسانٍ صلْت، من دون أدنى تفكير بمكافأة من أحد، لأن الأعمال الحسنة لا يُضيعُها المجازي الحَقّ رَبُّ العالمين الذي يُوَفِّي حسابَ كُلِّ أحد ، كما جاء في الذِّكر الحكيم: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ (35) .

ونَقاءُ سَريرة الإنسان؛ نَفيٌ للظلم بأيَّةِ درجةٍ كان ، لاسيَّما إذا مَسَّ موضوعاً مهمّاً لتقوية العلائق العربية وتوطيد أركان الوئام والتفاهم المجتمعي، ألا وهو "صِلَةُ الرَّحِم"..

يعاتبُ الأعشى – بلُطفٍ ومَنطق– حَيًّا يَتَّصلُ بِنَسبه؛ لِتَرِقَّ قلوبُهم وتَصفُوَ نفوسهم من جفاء الخصام، فَيُرأَبُ الصَّدْعُ بينهما : (من الخفيف)

لَمْ نَطأْكُمْ –يَوماً– بِظُلْمٍ، ولَمْ نَهْـ تِكْ حِجاباً، ولَمْ نُحِلَّ حَرامَا (36)

فما غَشِيناكم بعُدوانٍ أبداً، ولاً فضحنا لكم مستوراً ، ولا استبحنا منكم مُحرَّماً .. إذ كانت حُرمةُ كلِّ المُحرَّماتِ مُصانة : ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ (37) .

وقد كان الجاهليون يذكرون ذلك في كل مناسبة .. يقول الأعشى معاتباً بني عَبّاد ومالكٍ ابني ضُبَيعة : (من الطويل)

فَيَا أَخَوينا مِنْ أَبينَا وأُمِّنَا ألَم تَعلَمَا أَنْ كُلُّ مَنْ فَوقَهَا لَهَا (38)

يُناديهم بِخطاب الأُخوَّة الماثلِ لِتَنْشدَّ جَوارحُهم مُنتبهينَ لِنُصحه مُحذِّراً؛ أَنَّ كلاًّ منهم سيُقبرُ يوماً في هذه الأرض التي خلقه الله سبحانه من تُرابها كما قُبِرَ السابقون ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾(39)، ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ (40) .

ومَن بيَدِهِ أمرُنا؛ وجُودُنا وهَلاكُنا ؟ فالذي أحيانا؛ يُميتُنا إن شاء ومتى شاء .. وإلى هذه البديهية في معارف الناس؛ يُشير الأعشى، في هجائه ثَعلَبةَ بنَ سَعد : (من مجزوء الكامل)

وعلِمْتُ أنَّ اللهَ عَمْـ ـداً حَسَّهَا وأَرَى بِهَا (41)

لَمَّا كان خالقُ الناس جلَّ شأنه؛ مالكَهُم المتصرِّفَ بشؤونهم بما يستحقُّون ؛ أراد بهؤلاء القوم الإهانةَ والاستئصال فأهلكهم على مَرْأًى من الناس ليجعلهم مُثلةً للآخرين بسبب سوء أعمالهم .

فَناء القبائل والدُّول :

وكان الشُّعراءُ يَضربونَ المَثَلَ بالقبائل العربية البائدة ؛ لِلعظَةِ والاعتبار في مختلف الأغراض.. يَنقلُ الأعشى قولَ الحكماء؛ للإفادة من تجارب الماضين: (من الكامل)

ويقولُ مَن يَبقِيهمُ بِنَصيحةٍ: هَلْ غَيرُ فِعلِ قَبيلةٍ مِنْ عادِ (42)

يُحذِّرُهم مُناصِحوهم ؛ أمَا لكم من مُتَحوَّلٍ عن هذا الجبروت الذي تترسَّمون به مَن خلا؟ فلا بُدَّ للعاقل من نظرةِ تَفَحُّصٍ للسابقين كيلا يَقَعَ في أخطائهم ، أمّا مَن تأخذه العِزَّةُ بالإثم فَيُكرِّرُ ما سَبَقَ من أخطاءٍ وخطايا ويَزيد !.

وكانوا يَضربون الأمثالَ بِعادٍ في العُتُوِّ والطُّغيان وما جَرَّا عليها؛ حتى لم تَبقَ لها بَقيةٌ تُذكر .. يقُصُّ من جريرتها ، وما جرى لِقُدامى قبائل العرب : (من مجزوء البسيط)

ألَـــمْ تَـــرَوا إرَمـــاً وعـــاداً ... أودَى بِهَـــا اللَّيـــلُ والنَّهـــارُ (43)
بـــادُوا فَلمَّـــا أنْ تَـــآدَوا ... قَفَّـــى علـــى إثْـــرِهِمْ قُـــدارُ (44)
وقـــبلَهُمْ غالـــتِ المَنايَـــا ... طَسْـــماً، ولَـــمْ يُنجِهَـــا الحِـــذارُ (45)
وحَـــلَّ بِـــالحَيِّ مِـــنْ جَـــدِيسٍ ... يَـــومٌ مِـــنَ الشَّـــرِّ مُسْـــتَطارُ (46)
وأَهـــلُ جَـــوٍّ أَتَـــتْ عَلَـــيهِمْ ... فَأَفْسَـــدَتْ عَيْشَـــهُمُ ؛ فَبـــارُوا (47)

فقد تَمتَّعَ هؤلاء – إرم وعاد – بِنِعَمِ الله تبارك وتعالى ، فهل شكروا أو قَنَعوا ؟ لقد نَسُوا ذلك ثم تكبَّروا وبَغَوا.. فاسْتحقُّوا غضبَ العزيز الجبّار ، فما أحسُّوا بتتـابع الأيّـامِ وتقادُمِها عليهم؛ حتى دُمِّرُوا تدميراً ماحقاً. ولَحِقتْ بهم ثمودُ بِشُؤْم أحمرهم، كما لم تَـنجُ طَسْمٌ، كذلك حَلَّ ما حَلَّ بِجَديس، وأتت صُروفُ الزَّمان علـى مدينـة جَـوٍّ ؛ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (48) .

ويُصبِّرُ ابْنَتَهُ على فراقه مُمَثِّلاً لها بِزرقاء اليَمامة التي افْتقدتْ أخاها: (من البسيط)

كُوني كَمِثْلِ التي إذْ غابَ وافِدُهَا ... أَهدَتْ لَهُ مِنْ بَعيدٍ نَظْرَةً جَزِعَـا (49)

حين يكون الأمرُ فوقَ إرادتنا ، مُجاوِزاً إمكانَ فِعلنا؛ لا نستطيع التَّحـرُّكَ خـارجَ الواقع المفروض، فلا يبقى مُتاحاً أمامنا إلا التَّحمُّلُ – كمن سَبَق – ونَدفعُ بِأنفُسِنا لمواصلة الحياة.

فَلا مَناصَّ إلاَّ أنْ تَسودَ سُنَّةُ رَبِّ العالمين في الأرض ، فجزاءُ الظالمين عذابٌ في كلِّ آن ، وكما تذهبُ الأُممُ ؛ تذهب الدُّوَل كذلك .. يَمُرُّ الأعشى بقصَّة الحَضَر، ويَذكر سَدَّ مأرِبَ مُتأسِّياً : (من المتقارب)

ففـــي ذاكَ لِلمُؤْتَســـي أُسْـــوةٌ ... ومـــأْرِبُ قَفَّـــى عَلَيهَـــا العَـــرِمْ (50)
رُخـــامٌ بَنَتْـــهُ لَهُـــمْ حِمْيَـــرٌ ... إذا جـــاءَهُ مـــاؤهُمْ لَـــمْ يَـــرِمْ (51)
فـــأَرْوَى الـــزُّرُوعَ وأعنابَهَـــا ... علـــى سَـــعَةٍ مـــاؤهُمْ إذْ قُسِـــمْ
فَعاشُـــوا بِـــذلكَ فـــي غِبطَـــةٍ ... فَجـــارَ بِهِـــمْ جـــارِفٌ مُنهَـــزِمْ (52)
فَطـــارَ القُيُـــولُ وقَيلاتُهَـــا ... بِيَهـــاءَ فيهـــا سَـــرابٌ يَطِـــمّْ (53)

فَطارُوا سِـراعاً ومـا يَقـدِرُوْ نَ مِنـهُ لِشُـربِ صَـبِيٍّ فُطِـمْ (54)

إذن : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (55) .

فما من دَولةٍ قامتْ واتَّسَعتْ إلاَّ اضمحلَّتْ وفَنِيَتْ؛ فقد كان سَدُ مأْرِبَ آيةً في القُوَّةِ ورمزاً للعمران ومَناراً لحضارة سَبأ وأزدهارها شادَهُ الحِمْيَريُّون، ولكن سرعان ما جَرَفَ ذلك كلَّه سَيلُ العِرَم؛ نِقمةَ حَقٍّ سلَّطَه اللهُ عليهم لجُحودهم وبَطَرِهم ، بعدما كانـت الميـاهُ نِعمةَ خَيرٍ أجراها الله لهم لإحياء أرضهم وسَقيِ زَرعهم وإيناع ثمارهم ، فلم يشكروا ذلك النَّعيم العميم حتى انقلبتْ سَعادتُهم بما نالوا؛غَمَّا عليهم قَصاصاً عادلاً لانحرافهم وكفرهم ، فذهبت الإماراتُ وأُمراؤها وكأنْ لم يكن هناك مُلكٌ أو مالِك.. ولا شيءَ إلا من الله وبأمره تعالى وإليه وَحْدَه ..

وبذلك يَعرِضُ الأعشى النتيجةَ الختامية الحتمية بوجازة وبيان ؛ لِيَعتَبِرَ مَن يعتبر: (من مجزوء البسيط)

إنَّ لُقَيمـــــاً وإنَّ قَـــــيلاً وإنَّ لُقمـــانَ حَيـــثُ ســـارُوا (56)

لَـــمْ يَـــدَعُوا بَعـــدَهُمْ عَرِيبـــاً فَغَنِيَـــتْ بَعـــدَهُمْ نِـــزارُ (57)

فكما تَسقطُ دَولةٌ وتَقومُ دولة .. كذلك الأُمم فكلَّما غارت واحدةٌ بَزَغتْ أخـرى .. فقد عَرِيَت الدِّيارُ من أولئك الأُمراء وفَنِيَ قَومُهم عن بَكرةِ أبيهم، ثم خَلَفَتْ –مِـن بَعـدُ– ربيعَةُ ومُضَر؛ ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (58) .

اليَهود :

ومن هذا النَّبع الخُلقي الثَّرّ ، كان لديهم "الجِوار" (59) ؛ يُذكِّرُ الشاعرُ حفيدَ السَّموأل بحماية جَدِّه لِجاره؛ مُضحِّياً بولده لئلا يخونَ الجِوار : (من البسيط)

فَشَكَّ غَير قَلِيـلٍ ، ثُـمَّ قَـالَ لَـهُ: اذْبَحْ هَدِيَّكَ؛ إنّي مـانِعٌ جـارِيْ (60)

إذ كان مُتَّكلاً على الله تعالى، مُعتمداً عليه في الثَّبات على الموقف الصّائب مهمـا كلَّف من ثَمن.

يُؤمِّلُ الأعشى ذلك بثقةٍ تامّة على لسان السَّمَوأل بن عادياء اليهـودي صـاحب الحصن المعروف بالأبلق؛ إذ كان استودَعه الملكُ الضِّلِّيل (امرؤ القيس) سلاحَه ومُقتنياته، ثم طَلَبَها منه الحارثُ بن أبي شَمِرٍ الغسّاني بعد أن أسَرَ ابنَ السَّمَوأل وهدده بقتله ، فقـال له : اقتله ، فلن أُعطيَك الأمانة ، مُحتسِباً اللهَ تعالى في ابنه(61) :

وسَوفَ يُعقِبُنِينِـــه إنْ ظَفِـــرتَ بِـــهِ رَبٌّ كريمٌ وبِيضٌ ذاتُ أَطهـــارِ (62)

فالباري تبارك وتعالى هو الرزّاقُ الحكيم؛ بِجَعْلِهِ زَوجاتِهِ وسائطَ يَلِدْنَ له غيرَهُ إن مات. لهذا طَغَتْ شُهرةُ السَّموأل بالوفاء .

ويؤكد شاعرنا هذه المنَقَبةَ لشُرَيح بن حِصن بن عِمران بن السَّموأل، فضلاً عَمّـــا يتحلَّى به من صبَّر؛ وهي قِيمةٌ عليا يَعتزُّ بها كلُّ عربي :

والصَّبرُ مِنهُ قَـــديماً شِـــيمَةٌ خُلُـــقٌ وزَنْدُهُ في الوَفاءِ الثّاقِبُ الواري (63)

إذن هذه طبيعةُ خُلُقِهِ الكريم وجِبِلَّةُ فِطرتِهِ السَّليمة ، التي تستحقُّ الثَّناءَ والإطراء؛ لإشاعة مُثُلِ الخير نَحوَ الكمال .

ويَغورُ الشاعرُ في عُمق التاريخ القريب والبعيد لِيَرى هل بقي ممن عاش أحـــد ، على اختلاف أجناسهم ومَراتِبهم : (من الطويل)

ولا عادِيَا، لَمْ يَمنَعِ المَوتَ مالُـــهُ وحِصْنٌ بتَيماءِ اليَهـــودِيِّ أَبْلَـــقُ (64)

فَذَاكَ ، ولَمْ يُعجِزْ مِنَ المَوتِ رَبَّهُ ولكـــنْ أَتَـــاهُ المَـــوتُ لا يَتَـــأَبَّقُ (65)

فقد قضى عادياءُ اليهوديُّ ؛ مع وَفرةِ ماله ومتانة حصنه ، كذلك غَيرُهُ مهما عـــلا وقَوي، قَهَرهُ الموت جهاراً.. وكلُّ ذلك بأمر الله تعالى الذي حكـــم بِحَـــتمِ المـــوت علـــى الجميع.

النَّصارى :

ومن المَعالم الشّاخصة في جزيرة العرب ؛ كعبةُ نَجران – أحد مراكز النصرانية الثلاثة– وهي بيعة بناها بنو عبد المَدان بن الدَّيّان بن الحارث بن كعب ، على بناء الكعبة المشرَّفة وعظَّموها مُضاهاةً للكعبة (66) ، وكان يزورهم الأعشى مادحاً : (من المتقارب)

وكَعْبَـــةُ نَجـــرانَ حَـــتْمٌ عَلَيْـــ ـــــكِ حَتَّـــى تُنـــاخِي بِأَبْوابِهَـــا

يقول لناقته : ليس لك دون بَيعة نجرانَ من مَرامٍ ؛ حتى تنزلي عند بابِها .

أمّا المركزان الآخران للنصرانية ، فهما: آلُ المُنذر في الحيرة ، وآل غسّان فـــي الشّام(67).

ويذكرُ – من نصارى العرب – سادةَ نجران ؛ رَهْطَ عبد المَدان بن الدَّيّان :

نَـــزُورُ يَزيـــدَ وعَبـــدَ المَســـيحْ وقَيســـاً؛ هُـــمُ خَيـــرُ أَرْبابِهَـــا (68)

ويُثني الأعشى على رجلٍ مَسيحيٍّ آخر ، هو هَوذةُ بن عليّ الحَنَفـيّ ؛ إذ أطلـقَ سَراحَ أسرى بني تَميم بعد معركتهم مع كسرى: (من البسيط)

سائلْ تَميماً بِهِ أيّـامَ صَـفْقَتِهِمْ لَمّا رآهُمْ أَسارَى، كُلُّهُمْ ضَـرَعَا (69)

بِهِمْ تَقرَّبَ يومَ الفِصْحِ ضـاحِيَةً يَرجُو الإلهَ بِما سَدَّى وما صَنَعَا (70)

فقد أطلق هذا السَّيِّدُ الحَنَفيّ هؤلاءِ التَّميميينَ لوجه الله تعالى في صبيحة عيد تَذكار قِيامة السَّيِّد المسيح عليه السلام من الموت (باعتقاد النَّصارى)، وهو أكبر أعيادهم ؛ إذ لم يتحمَّلْ ذُلَّ أسْرِهم وهم من أبناء جِلدَتِهِ على أية حال .

وعلى ذلك يُقرِّرُ الأعشى أنَّ الثَّواب الحقَّ لايكون إلا منه جَلَّ وعَلاَ لمن أحسـن، ولا سيَّما إذا تميَّز الفاعلُ.. يُشيدُ الشاعرُ بالعملِ المجيد لِهَوذةَ بنِ عليٍّ الحَنَفيّ:

ومَا أرَادَ بِهـا نُعمَـى يُثـابُ بِهَـا أنْ قالَ كِلْمَةَ مَعروفٍ بها نَفَعَـا (71)

المُهمُّ أن يُؤْتيَ مَعروفُهُ أُكُلَهُ في نفع الناس، من دون طلب جزاء؛ لأن شجرةَ الخير تَيْنَعُ وتَثمِرُ ثواباً وفيراً من الغَنيّ الكريم ، فالله تعالى خَيرُ مُعوِّضٍ عن أية خسارة أو فقـدان؛ بخير مُعوَّضٍ.

ويُشبِّهُ شاعرُنا البكريّ تُقَى قَيس بنِ مَعديكرب الكنديّ ووَرَعَهُ بِراهبٍ ناسكٍ فـي مِحرابه صلاةً وتسبيحاً ، لِيُقرِّبَه من نفوس أبناءِ قبيلته حتى تتحالفَ معه: (من المتقارب)

ومـا أَيْبُلِـيٌّ علـى هَيكَـلٍ بَنـاهُ وصَـلَّبَ فيـهِ وصـارَا (72)

يُراوِحُ مِـن صَـلَواتِ المَلِيْـ ـكِ طَوراً سُجوداً وطَوراً جُؤارَا (73)

بِأَعظَمَ مِنهُ تُقًى فـي الحسـابْ إذا النَّسَـماتُ نَفَضْـنَ الغُبـارَا (74)

يُشيد الشاعرُ بنقاء الحليف وصلاحه ، عادًّا عِبادتَهُ أفضلَ من عَمَل راهـبٍ دائـم الاعتكاف في هيكله دائباً في تضرعه – إخفاتاً وإجهاراً– بالدُّعاء إلى رَبِّ العباد .

وَقعَةُ ذي قار :

وبِذِكرِ الله رَبِّ العالمين؛ يُكبِرُ الشاعِرُ دِفاعَ الأبطالِ عن أرضهم وانـدفاعَهم فـي حَومةِ القتال وحَماسَتَهم العالية لِقَمع الظلم والعُدوان، وذلك عند قيام واقعة ذي قـار بـين العرب والفرس(75) ، فقد كان كسراهم مُعتدياً ، وكان الحَقُّ مع البكرِّيين ، لمَّا جَهَّزَ كسرى جُنودَهُ وأذنابَهُ؛ انْضمَّ للبكريين أشقاؤهم ، راسمين صورةً رائعةً لوحدة العرب ، ونُصـرة الحَقّ .. وفي خِضَمِّ المعركة الكبرى يَبرُزُ بَنو شَيبانَ بن ثعلبة –فـي أهوالهـا–أُسـوداً

مَيامين؛ يتقدَّمون صناعَ النصر المُوزَّر ، في مَشْهَدٍ دفاعيٍّ فَـذٍّ أثـارَ إعجـابَ شـاعرِنا واعتزازه ؛ فيحلو له أن يَدعوَ لمنْ حَضَرَ ذلك المنظرَ الرائع؛ أن تَسلمَ عُيونُهم ؛ إكراماً لِراسِمي تلك الصورة البَهيّة ؛ إذ رَدُّوا كَيدَ البُغاة وأذاقوهم بأسَ النَّكال: (من الطويل)

فَلِلَّهِ عَينَا مَن رَأَى مِنْ عِصـابةٍ أَشدَّ علـى السُّـعاةِ مِـنَ التـي (76)

أَتَتْهُمْ مِنَ البَطحاءِ يَبْرُقُ بَيضُـهَا وقَدْ رُفِعَـتْ راياتُهـا فاسْـتَقَلَّتِ (77)

ورُبَّما كانت حَنيفيةُ العرب، ومُجوسيّةُ الفرس – آنذاك – مُحرِّكاً خَفيّاً للنـزاع بـين الطَّرفين .

وخرج العربُ من هذه المعركة بانتصار ساحق، ولكن زَبَدَ منهم أو من بني شَيبانَ الذين كان لهم القِدْحُ المُعلَّى في حُسنِ البلاء ؛ مَنْ وَفَدَ على كسـرى (78) ؛ فَتَصـدَّى لـه شاعرُ القبيلة يُوَبِّخُه على فَعلته النكراء ، وعن تَعامِيهِ عن مَنظر مَصارع أشراف قومـه الذين ضَحَّوا بأنفسهم في سُوحِ الوَغَى يَعبَثُ بِجُثثهم حَيَوانُ الصحراء: (من الطويل)

كأنَّكَ لَمْ تَشـهَدْ قَـرابِينَ جَمَّـةً تَعِيثُ ضِـباعٌ فِـيهِمُ وعَواسِـلُ (79)

جَعَلَ قَتْلاهم في أعقاب هذه الحرب؛ تَضحياتٍ قَدَّموها تَقرُّباً إلـى الله تعـالى ؛ إذ كانوا مُلتزمين بواجب الدِّفاع المشروع ، أُمَناءَ على عُهودهم التي قطعوها على أنفسـهم موثوقين بمواثيقهم ؛ فضلاً عن أنهم لم يَتَزحزحوا عن مبادئهم الاجتماعية القويمة وقِيَمهم الرُّوحية الأصيلة ومُعتقداتهم الدِّينية النَّبيلة؛ كلُّ ذلك تعريضٌ بانحراف الخائن.. وبِذا كان انتصارُ حَنيفيَّتهم البَيضاء على مَجوسيّة أولئك البغاة .

لا دَوامَ لِحالٍ ؛ ولا بقاء :

وهذا رَدٌّ عمليٌّ لواقع الحياة المُتغيِّر المُتبدِّل على الدَّوام ، كما يقول الأعشى فـي مُقدِّمة قصيدته التي مدح بها النَّبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، عندما هَمَّ بالإسـلام: (من الطويل)

شَبابٌ وشَيبٌ وافْتِقـارٌ وثَـروةٌ فَلِلّهِ هذا الـدَّهرُ كيـفَ تَـردَّدَا (80)

فـ ﴿ **الدَّهرُ يَومانِ؛ يَومٌ لَكَ ويومٌ عَلَيكَ** ﴾ ، كما يقولُ الإمام عليٌّ عليه السلام ، فهو مُتقلِّبٌ بين الشباب والشيخوخة والغنى والفقر وكذا القوة والضعف والعافية والمـرض ، وهكذا فلا شيءَ دائمٌ في هذه الدُّنيا، ولا بقاءَ لشيءٍ على حالٍ ثابتة. والنتيجـة ؛ أنَّ مَـن يَحتاجُك اليَومَ ستحتاجه غداً ؛ ولذا كانت قِيَمُهم الخُلُقية بِقَدْرِ ما هي مُستمدَّةٌ مـن ديـنهم

السَّماوي ، مُتأثِّرةً أيضاً ببيئتهم الأرضية فالتكافلُ والمروءة والنجدة .. إلى ما هنالك من مُفردات خُلُقهم السائد؛ إذ كانت مَفاتيحَ كلِّ ما يعترض الإنسانَ فيما يَعرِضُ في الحياة، مع رُكوزِ تذكُّر الدّارِ الآخرة في الذِّهن والسُّلوك؛ إذ هي أهمُّ ما ينبغي أن يضعَهُ الإنسانُ العاقل نُصبَ عينيه وهو في دُنياه، فيحرص على أن يكون موقفه هناك سليماً ، فيقدِّم لها ما يستطيع من عمل أنفع للناس وأبقى له .. ما دام الموت حَقٌّ على كلِّ مخلوقات الله تعالى كما نطق القرآن العظيم : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[81].

وإذا ما افتقر الإنسانُ الضعيف ؛ فلا حَولَ ولا قُوَّةَ له إلاَّ أن يَعوذَ بربِّه الغنيّ ذي الرَّحمة ، فهو الجديرُ – بحقٍّ– لتلبية احتياجاته ومتطلبات حياته.. ينقل الأعشى مُحاورةً بينه وبين ابنته ؛ تدعو له فيها بالسَّلامة والرّاحة في سفرهِ حتى يعود: (من البسيط)

تَقولُ بِنْتِي وقَدْ قَرَّبتُ مُرْتَحَلاَ: يا رَبِّي جَنِّبْ أَبي الأوْصابَ والوَجَعَا [82]

عَلَيكِ مِثْلُ الذي صَلَّيتِ فاغْتَمِضِي يَوماً لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا [83]

فهذه البنتُ تخاف على أبيها مَخاطرَ الأسفار، لكنه مؤمنٌ بأجل الله ؛ فيدعوها إلى احتساب الباري ﷻ ؛ لتنامَ قَريرةَ العين .

وفي معرض مديح قيس بن معديكرب ، يُخاطبُه شاعرُنا مُؤكِّداً حِكمةَ خَلْق الله وقضائه النافذ بموت كلِّ نَفْس: (من الكامل)

وعَلِمتَ أنَّ النَّفْسَ تَلقَى حَتْفَهَا ما كانَ خالِقُهَا المَلِيكُ قَضَى لَهَا [84]

إذ كان من إيمان هذا الأمير ؛ أنَّه لا يموتُ إلاَّ في حِينه وميقاته المحتوم .

لقد بَرَزَ الأعشى الكبيرُ في طليعة الشعراء الجاهليين المثقفين المحيطين بمعارف عصرهم من تاريخ وأساطير وأنساب، وهو الرجلُ الحكيم الأعمق غوراً في بلاده والأصحُّ نظراً في مجتمعه .. وبذلك كان شعرُهُ شاملاً لتاريخ الجزيرة العربية وأحداثها والممالك التي قامت فيها ورموزها، والحروب التي اندلعت خلال تلك الحقبة ودوافعها وآثارها، ومعتقدات أهلها الدِّينية المستقاة من فِكْرِ الأديان السمَّاوية التي سَبقتْ ظهورَ الإسلام ؛ ولاسيّما منهاج حنيفيّة الخليل عليه السلام ، وشرائع رسل الله تعالى في بلاد العرب ، وما أُثِرَ عنهم وسَطَعَ من خُلُقٍ كريم وقِيَمٍ سامية؛ غَدَتْ تقاليدَ سائدة وأعرافاً رُوحيّةً راسخة في ضمير الأُمَّة .

وقد تهيَّأ لشِعره تحقيقاً علمياً ممتازاً يُعتدُّ بدِقَّته ويُوثَق في منهجه ؛ وقد نَهَلَ منه البحثُ ما شاء اللهُ له أن ينهلَ بقناعة تامّة بِصُدور هذه الأشعار عن الأعشى واطمئنان إلى صِحَّة هذا الشعر .

الهوامش

(1) ينظر: فتوح البلدان ، البلاذري ، ص97 . وديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، ص30 . وسيُشار الى هذا المصدر لاحقاً بـ(ديوان الأعشى) .

(2) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، 91/9 .

(3) ينظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلاّم الجمحي، 65/1-66 .
والأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ، 108/9-110 . والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني، 53/1-54 ، 81، 99-100 . وديوان الأعشى ، ص37، 39 .

(4) ينظر: طبقات فحول الشعراء ، 65/1- 66 .
والأغاني ، 112/9-113 . والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، 53/1-54، 81، 99-100. وديوان الأعشى ، ص26-27 ، 38 .

(5) منفوحة : قرية مشهورة من نواحي اليمامة .

(6) ينظر: الأغاني ، 125/9-126.

(7) هو: كِنديٌّ من بني الحارث بن معاوية .ينظر: شرح المفضليات ، ابن الأنباري ، ص427-441 .

(8) ديوان الأعشى ، ص69 .

(9) الفلح : البقاء والنجاة والفوز، أو هو: الفلاح، حذفت الألف للقافية .

(10) ديوان الأعشى ، ص287 .

(11) فائش: وادٍ في اليمن ، وسلامة : أحد الأذواء ؛ أُمراء كانوا يحكمون في نظام يشبه النظام الإقطاعي ، وكان يحكم في كل محفد – منطقة من اليمن – واحدٌ من هؤلاء الأذواء ، ويتكون المحفد من قصور أو حصون، وفيها كان يُقيم الـ(ذو) ، والقَيل أعظم منه نفوذاً ، والملك أعظم من القَيل . ينظر:القاموس المحيط والقابوس الوسيط،الفيروزآبادي،(فيش). والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،92/9-93 .

(12) ديوان الأعشى ، ص283 .

(13) ينظر: الأغاني ، 113/9 .

(14) السّرار : المناجاة ، مصدر سارَّ على وزن فاعل . ديوان الأعشى ، ص99 .

(15) سورة النِّساء ، 139/4 .

(16) كان عامل كسرى على عين التَّمْر وما والاها إلى الحيرة ، واسْتعمله أَبَرْويز على الحيرة وما كان عليه النُّعمان بن المنذر بعد قتله ، وبقي على مُلْكه حتى تصالح مع خالد بن الوليد سنة 12هـ .
ينظر: النقائض، مَعمر بن المثنى، 139/1 .
وتاريخ الطبري، 479/1، 483، و 315/2-317 . والعقد الفريد ، ابن عبد ربه ، 112/6 .

(17) ورُوي: تَيَّمُ قيساً؛ في مدح قيس بن معديكرب .

(18) نماه : رفعه .

(19) انتكس: وقع على رأسه.ضرع من الشيء: دنا منه ، يضارع : يقارب . ينظر: لسان العرب ، (ضرع) .

(20) ململة : مكوَّرة مجتمعة، يقصد : صخرة ملساء تزلق فوقها القدم . الأرحّ: الوعل المنبسط الظلف. المخدّم: المحجَّل الذي يستدير التحجيلُ بأرساغ رجليه دون يديه ، والتحجيل : بياض يُحيط بالأرجل.

(21) ديوان الأعشى ، ص347 .

(22) تبدّاها : بدأها وأنشأها . ديوان الأعشى ، ص415 .

(23) الأزج: ضرب من الأبنية يُبنى طولاً، وأَزجَّ البناء : علاَّه . طوى البئر يطويها طيًّا : بنى جوانبها بالحجارة والآجُرّ . ديوان الأعشى ، ص267 .

(24) الجنة : التِّرس؛ لأنه يَجنُّ صاحبه ؛ يُخفيه ويَستره. أعلمه : جعل عليه علامة بالطَّعن والجروح . ديوان الأعشى ، ص81-83 .

(25) مارت الإبل : ترددت قوائمها في جنبها ، واضطربت جيئةً وذهاباً . الدرع: ثوب يُنسجُ من الحَلَق يلبسه المقاتل . زغيف : واسعة طويلة .
ديوان الأعشى ، ص359 .

(26) حنيفة بن بكر؛ منهم هوذة بن علي ممدوح الأعشى ، كان مُملَّكاً على قومه بني حنيفة –أحد بطون بكر – في اليمامة. وقد كتب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إليه يدعوه إلى الإسلام ، كما كتب إلى الملوك .
ينظر: العقد الفريد ، 107/2 ، و312/3 .

(27) حزرم : جبل . الكندير: الغليظ المرتفع من الأرض .
ديوان الأعشى ، ص355 .

(28) تلف : هالك .

(29) ديوان الأعشى ، ص359 .

(30) لا تجير؛ الضمير المستتر يعود على ذُهل بن شيبان بن ثعلبة بن بكر .
ديوان الأعشى ، ص355 .

(31) لاهه؛ إلهُه.ويُستَشهَد بهذا البيت على أنَّ لفظَ الجلالة أصله "لاه" ثم عُرِّفَ بالألف واللام . الكبار : العظيم . ديوان الأعشى ، ص333 .

(32) شيخ مسمع؛ ولده مسمع: جد المسامعة. أمسى: دخل في وقت المساء. أشرق : دخل في شروق الشمس ؛ وقت الصَّباح .

(33) من أخ ؛ يعني : نفسَه وقومه . محارم تيم : حرمتهم وقرابتهم . ما أخفَّ : تعجب من خفَّتهم وطيشهم . أرهق ؛ من الرَّهَق : السَّفَه وركوب الشَّرّ . ديوان الأعشى ، ص387 .

(34) أعقبه : جازاه . ديوان الأعشى ، ص167 .

(35) سورة آل عمران ، 115/3 .

(36) ديوان الأعشى ، ص297 .

(37) سورة النساء ، 128/4 .

(38) ديوان الأعشى ، ص393 .

(39) سورة التكوير ، 26/81 .

(40) سورة الأنعام ، 95/6 .

(41) ديوان الأعشى ، ص307 .

(42) بقاه : رَصَده ، أو نَظَر إليه . ديوان الأعشى ، ص183 .

(43) إرم بن سام بن نوح . عاد بن عوص بن إرم . أودى بهم : أفناهم .

(44) تآدوا ؛ صيغة تفاعل من الأيد: القوة. قدار : أحمر ثمود ، يُضرَب به المثَل في الشُّؤم لقتله ناقةَ صالح عليه السلام ، فأنزلَ اللهُ على قومه العذابَ بسببه .

(45) طسم وجديس وعاد وثمود : هؤلاء أبناء عمومه ، وهم من نَسْل إرم بن سام .

(46) مستطار : شديد .

(47) جوّ: مدينة قديمة سُمِّيَتْ بعد ذلك باليمامة ؛ اسم امرأة من جَديس ، وهي الزَّرقاء المشهورة بِحِدَّة البَصَر، حين قَلَع تُبَّعُ عينَها وصلبها على باب المدينة . ديوان الأعشى ، ص331 .

(48) سورة القمر ، 54 . وقد ذُكرَ فيها هذا المقطع سِتَّ مَرّات .

(49) وافدها: رسولها، يقصد: أخا زرقاء اليَمامة؛ رياح بن مُرَّة الطَّسْمي . ديوان الأعشى ، ص153 .

(50) قفّى عليها العرم : عَفَّى عليها السَّيل .

(51) لم يرم: لم يذهب ، لم يَبرح .

(52) جار؛ من الجَور: المَيل والانحراف عن القصد. منهزم: مُصوِّت ، له صوت .

(53) يهماء: صحراء مطموسة المسالك .

(54) ديوان الأعشى ، ص93 .

(55) سورة الرحمن ، 26/55 .

(56) لقيم وقيل ولقمان؛ وفد عاد الذي جاء مكّةَ يستسقي ، بعد أن حبس الله تعالى المطَرَ عن قومهم ثلاثَ سنوات، فمرَّت بهم سحائب، نودي منها: اختاروا ، فاختارَوا السَّوداء؛ ظنًّا منهم أنها أغزرُها ماءً ، فكان فيها هلاكُهم .

(57) عربياً : متكلماً بالعربية، يقصد أن قومهم ماتوا جميعاً.غنيت : أقامت . نزار ؛ جَدُّ عرب الشَّمال (ربيعة ومضر). ديوان الأعشى ، ص333 .

(58) سورة آل عمران ، 140/3 .

(59) الجوار: أن تُعطي الرجلَ اللاجئ إليك عهداً، فيكون به جارك ، فإذا كان المُجيرُ قويًّا ؛احترم الناسُ جِوارَهُ ولم يَمَسُّوا جاره بسوء .

(60) الهديّ : الأسير .

(61) ينظر: طبقات فحول الشعراء ، 279/1 .

(62) بيض: جمع بيضاء؛ كناية عن الزوجة. أطهار: أيام طهارتهنَّ من الحَيض .

(63) ثقبت النار وورت : اتَّقدتْ . ديوان الأعشى ، ص231 .

(64) عادياء ؛ أبو السَّموأل الشاعر اليهودي .

(65) يتأبّق : يَتخفَّى ويَتستَّر . ديوان الأعشى ، ص267 .

(66) ينظر: الأصنام ، هشام بن الكلبي ، ص44–45 . ومعجم البلدان، ياقوت الحموي، 268/5 .

(67) ينظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري ، ص359 .

(68) ديوان الأعشى ، ص223

(69) الصَّفقة : من أيام العرب مع الفرس . ضرع : ذلَّ .

(70) سدّى ؛ أسدى : قدَّم .

(71) ديوان الأعشى، ص159–161.

(72) أيبليّ: صاحب أيبل: عصا يُدَقُّ بها النّاقوس. الهيكل: موضع في صدر الكنيسة ، يُقرَّبُ فيه القُربان . صلَّب : صَوَّر فيه الصّليب . صار : سكن .

(73) راوح بين العملين : تداول هذا مَرَّةً وهذا مرة .

(74) النسيم: نفس الرِّيح ، إذا كان ضعيفاً ، وأولها حين تُقبل بلين قبل أن تشتدَّ . ينظر: لسان العرب ، (نسم) . ديوان الأعشى ، ص103 .

(75) تنظر تفاصيلها في تاريخ الطبري ، 472/1–482 .

(76) العصابة ؛ بنو ذُهْل بن شَيبان . أشدّ: صفة لعصابة . السعاة : الذين سَعَوا للحرب وهَيَّجوها ؛ الفرس . التي ؛ تضمين ، وهو قبيح ؛ لأنه يفصل بين الصِّلة والموَصول ، وهما كالشيء الواحد .

(77) أنتهم ؛ صلة الموصول في البيت السابق ، أي : أنهم أشدُّ في القتال من كتيبة الفرس التي أتتهم من البطحاء (قرب ذي قار) . البَيض: جمع بَيضة : غطاء الرأس ، يلبسه المقاتل لِيَقيَه في القتال . استقلت : عَلَتْ وارْتفعتْ . ديوان الأعشى ، ص309 .

(78) هو: قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجَدَّين ، كان أحد أشراف بكر البارزين ، وَلاَّهُ كِسرى الأُبُلَّة (البصرة حالياً) ، ثم حَبَسه بساباط حتى مات .
ينظر: تاريخ الطبري ، 478/1– 479، 481 .
والعقد الفريد، ابن عبد ربه، 313/3 و112/6 . والكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، 173/1–174.

(79) قرابين : جمع قُربان . عاثَ في الشيء: أفسده . عواسل : جمع عاسل: ذئب.
ديوان الأعشى ، ص233 .

(80) ديوان الأعشى ، ص185 .

(81) سورة آل عمران ، 185/3 .

(82) الوَصَب: نحول الجسم من تعب أو مرض .

(83) الصلاة : الدُّعاء . ديوان الأعشى ، ص151 .

(84) م. ن . ص83 .

جريدة المصادر :

- القرآن الكريم .
- **الأصنام**

أبو المنذر هشام بن محمد بن السّائب الكلبي ت 204هـ

تحقيق أحمد زكي

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1924.

- **الأغاني ستة عشر جزءاً**

أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ت 356 هـ .

مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

تحقيق عبد السلام محمد هارون .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مط كوستاتوماس، القاهرة ، 1963.

- **تاريخ الطبري ؛ الأُمم والملوك ستة مجلدات**

أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَريّ ت 310 هـ

دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2، 1988 .

- **ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ت 7 هـ**

تحقيق د. محمد محمد حسين

مط دار النهضة العربية ، بيروت ، 1974 .

- **شرح المُفضَّليّات**

أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ت 304هـ

طبعة أوربا ، د. ت .

- **طبقات فحول الشعراء سِفران**

محمد بن سَلاّم الجمحي ت 231 هـ

شرحه محمود محمد شاكر

المؤسسة السعودية ، مط المدني ، مصر، 1980 .

- **العِقد الفريد تسعة أجزاء**

أبو عَمرو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت 328هـ

تحقيق د. مفيد محمد قميحة

منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997 .

- **العُمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده جزآن**

أبو علي الحسن بن رشيق القَيرواني ت 463هـ

حققه محمد محيي الدين عبد الحميد
دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، ط4، 1972.

- **فُتوح البلدان**

أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري ت 279 هـ
عُني بمقابلته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان
المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مط المصرية بالأزهر، ط1، 1932 .

- **القاموس المحيط والقابوس الوسيط أربعة أجزاء**

أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشِّيرازي الفيروزآبادي ت 817هـ
نشر دار العلم للملايين ، بيروت ، د. ت .

- **الكامل في التاريخ اثنا عشر جزءاً**

أبو الحسن عِـزُّ الدِّين علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير الشَّيباني الجَزري ت630هـ
طبع الشيخ أحمد الحلبي ومحمد أفندي مصطفى، القاهرة ، 1303هـ .

- **لسان العرب عشرون مجلداً**

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي منظور الأنصاري ت 711هـ
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر ، د. ت .

- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**

شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري القرشي ت 749هـ
حققه وقدَّم له أيمن فؤاد سيِّد
دار الاعتصام ، القاهرة ، 1979 .

- **معجم البلدان عشرة مجلدات**

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي الحَمَوي البغدادي ت 626هـ
قراءةً على الشيخ أحمد بن الأمير الشَّنقيطي ت 1912
مط السعادة ، القاهرة، ط1، 1906 .

- **المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام عشرة أجزاء**

د. جواد علي
دار العلم للملايين ، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط2، 1978.

- **النقائض ؛ نقائض جرير والفرزدق جزآن**

أبو عُبيدة مَعْمَر بنُ المُثنَّى التَّيمي البصري ت 209 هـ
مط بريل ، ليدن ، 1905 .